صورة الإسلام والعرب والمسلمين في وسائل الإعلام والتثقيف الغربية

الدكتور رشيد أبو ثور*

مدخل:

ما من أحد من أبناء الغرب يتمكن من الاطلاع على الإسلام من خلال الدراسة الموضوعية المحايدة، أو من خلال معاشرة المسلمين بقلب منفتح، إلا وسيتأثر بالقيم الإسلامية ليتخذ منها موقفا إيجابيا؛ بل قد ينتهي المطاف بكثير منهم إلى اعتناق الإسلام، ليشرعوا بعد ذلك في العمل على التعريف به والدعوة إليه بمختلف الوسائل؛ غير أن هذا الأمر ما زال قاصراً عن تغيير الصورة النمطية العامة التي يحملها عامة أبناء الغرب عن الإسلام، وهي صورة مشوهة سلبية، لم تأتِ من فراغ، إنما غرستها في البداية مناهج التعليم، وتمعن في تكريسها بعد ذلك مختلف وسائل الإعلام والتواصل. ويهدف هذا التشويه إلى تحقيق أهداف حددها الدكتور إدوارد سعيد عند حديثه عن الاستشراق، بقوله: «**إن الغرب الاستعماري المسيحي كان هو الطرف البادئ بالصدام والاستعمار، والحريص دائماً على تشويه صورة العرب والمسلمين والتشكيك في الإسلام، والحط من قيمة الثقافة الإسلامية بغية فرض إرادته وإملاء شروطه والسيطرة اقتصاديا وسياسيا وثقافيا على الشعوب العربية والإسلامية، ومنع وحدتها ونهضتها. ولقد اتسمت الهجمات الغربية بالعنف والتركيز على العالم الإسلامي؛ لأنه كان الاستثناء الذي واجه السيطرة الغربية الاستعمارية على الشرق.**»(١)

* باحث من المملكة المغربية.

وكان أخطر مدخل اعتمده الغرب لتشويه صورة العرب والمسلمين هو التعليم، حتى يشكل عقول ووجدان الناشئة ويشحنها بالأحكام المسبقة في المراحل التعليمية الأولى، ويزرع فيها أفكاراً ومفاهيم وقيماً يصعب انتزاعها في ما بعد، والتي غالبا ما تشكل سدا منيعا في وجه أي تواصل أو تعارف.

تقول الدكتورة مارلين نصر بعد أن أجرت بحثا حول صورة الإسلام والعرب في الكتب المدرسية الفرنسية: «**إن هذه الصورة تبدو سلبية وخاملة ومتخلفة، يتميز دورها بالعداء للآخر على مختلف المستويات، هذا إلى جانب أن هؤلاء العرب هم بدو الصحراء، أما عرب اليوم فغائبون أو على الأصح مغيبون.**»(٢)

وأورد الدكتور مراد هوفمان في كتابه «الإسلام عام ٢٠٠٠»: أن البروفسور الإيراني عبد الجواد فلاطوري من الأكاديمية الإسلامية للعلوم في مدينة كولونيا الألمانية، قد قام مع زميله الألماني أودوتورشكا بتحليل ما جاء عن الإسلام في مئات الكتب الدراسية الألمانية، في الكاثوليكية والبروتستانتية، وكذلك الكتب المدرسية المعتمدة في الدانمارك وفنلندا وهولندا وإيطاليا، فوجدا مواطن عديدة من التشويه، واقترحا ما يلزم من تصحيح. وفي الولايات المتحدة، وبعد تحليل مضامين ٣٦ كتابا مدرسيا للعلوم الاجتماعية، مقررة على طلبة المدارس الابتدائية والمتوسطة في ولاية كاليفورنيا في العام الدراسي (١٩٧٤-١٩٧٥)، اكتشف الدكتور إياد القزاز الخبير الأمريكي العربي «**صورة مشوّهة للإسلام تفرط في تأكيد عدوانيته، فضلا عن صورة الرق ومركز المرأة المتدني، كما خلط مؤلفو الكتب المدرسية عمداً بين القرآن والسنة، وجرى تصوير العرب كشعب بدوي.**»(٣)

أما الباحثة عدوية العَلَمي فقد اكتشفت أن ٥٨ كتاباً من الكتب المقررة من رياض الأطفال إلى الصف التاسع، في المناهج الأمريكية، تركز على خصائص الروح القتالية في الإسلام، وتهمل فلسفته في السلام؛ أما معالجتها للقومية العربية فكانت مشوهة تركز على الخصائص العدوانية المزعومة للإنسان العربي.

والمجال الثاني الذي يعتمد لتكريس هذه الصورة السلبية لدى الغربيين، هو «الرواية الشعبية»؛ ولقد قام الدكتور أنس الشيخ علي مدير مكتب لندن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بدراسة ٣٠٠ رواية شعبية؛ ولاحظ أن التوجه المعادي للإسلام في هذه الروايات بدأ بالتزايد بشكل كبير كمّاً ونوعاً منذ مطلع السبعينات. ويحتل «الأصوليون الإسلاميون» في هذه الروايات، موقع المجرمين والأشرار؛ حيث يسعى أبطال مكتب

التحقيقات الفيدرالي الأمريكي، أو غيرهم من الأبطال الآخرين لإنقاذ العالم من «**مؤامراتهم الشيطانية**.» وفي هذه الروايات يختلط العنف بالرومانسية والإسلام بالنصرانية ويتصارعان؛ وغالبا ما ينتصر الأبطال النصارى الذين يتحملون مسؤولية احتواء التهديد الإسلامي، في انتظار مجيء جيل آخر يتمكن من القضاء بشكل نهائي على ما وصف بـ «**الطفيليات العنيدة**».

ويشكل الإسلام والمسلمون كذلك مادة دسمة لنمطين آخرين من الرواية الشعبية: وهما الرواية الرومانسية (التي تستهدف النساء من القراء) وروايات الأدب الجنسي المكشوف، والتي تستغل المرأة وتصورها بشكل رخيص، حيث يساء إلى المسلمين فيها، ويوظف الشرق الإسلامي كمادة وكمسرح للخيال الجنسي والفجور.

ثم يأتي دور الإعلام؛ ويقول **إدوارد سعيد** بهذا الخصوص، في حديثه عن «**الاستشراق**»: «**يحتل العربي المسلم في الولايات المتحدة مكانة بارزة في الإعلام، غير أنها تحمل قيمة سلبية، فهو مخرب يقاوم وجود إسرائيل والغرب في الشرق الأوسط، أو يقدم كعقبة أمكن تجاوزها لخلق إسرائيل سنة ١٩٤٨، والتي تعتبر امتداداً حضارياً للغرب، ويرتبط العربي في الأفلام والتلفاز إما بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدم. ويظهر منحلاً، ذا طاقة جنسية مفرطة، قديرا دون شك على المكيدة البارعة المراوغة لكنه – جوهرياً – سادي، خؤون، منحط، تاجر رقيق، راكب جمال، صداف، وغد، متعدد الظلال.**»(٤) «**ولا تختلف كثيرا مكونات الصورة الذهنية للعرب والمسلمين والإسلام في الولايات المتحدة عن مثيلاتها في أوروبا**».(٥)

للاقتراب أكثر من المنحى التشويهي المغرض لكل ما له صلة بالعروبة والإسلام، في مناهج التعليم الغربية، سنتصفح المناهج الإسبانية باعتبارها أكثر دلالة على التحيز المتنكر لثمانية قرون من الحضور الإسلامي في إسبانيا، من خلال كتاب «**الإسلام والعالم العربي: الدليل التربوي للأساتذة والمكونين**»(٦)؛ الذي أشرفت على إنجازه الأستاذة خيما مارتين مونيوس Gema Martin Munuz، بتكليف من معهد التعاون مع العالم العربي سنة ١٩٩٣. يستعرض هذا الكتاب مختلف الدسائس والتحريفات المبثوثة في المقررات الدراسية الإسبانية التي تعالج القضايا العربية والإسلامية، ويقترح التصحيحات المناسبة لها. وهذا ملخص لما ورد عن التحريفات التي تشكل وجدان الإنسان الغربي لتحدد منذ طفولته موقفه من الإسلام:

يقرر الكتاب أن أغلب ما يكتب في الغرب، يتميز في معالجته لقضايا الإسلام والمسلمين بكثرة الأخطاء، ونزوع عام لاعتماد الأحكام المسبقة والتفسيرات المغرضة وحتى العنصرية؛ وذلك من خلال منحيين: تعميم تجارب خاصة بزمن ومكان معينين، على كافة العالم الإسلامي، واعتبار القيم الغربية معيارا وحيدا لمحاكمة القيم الإسلامية؛ ثم انتقاء المواضيع حسب صلتها بأحداث تأثر بها الغرب؛ لذا نجد اهتماما مبالغا فيه بقضية النفط، واستعمالا متكررا لمفردات من قبيل: الخطر والحنق والغيظ والخوف والتهديد والتعصب والتطرف التي يوصف بها المسلمون. ثم تقدم صورة عن الإسلام مقترنة بالرجعية والجمود والعجز عن مواجهة الحداثة، مع تفسير كل هذا بالتعصب الديني والمواجهة مع الغرب.

ثم يتناول البحث مختلف المعاني التي شملها التحريف، كما يأتي:

الله سبحانه وتعالى: عند الحديث عن الذات الإلهية، يتم التمييز بين إله المسلمين بتسميته «ألا» Ala، وإله النصارى بتسميته «ديوس» Dios، للغرس في لا وعي المتلقي أنهما إلهان مختلفان، إله حقيقي هو ما يعبده المسيحيون، وإله ثاني يختلف عن الأول.

أما **النبي محمد(ص)** فيعرف، على أنه مصلح اجتماعي، ورجل دولة أكثر مما هو نبي ورسول، ويتم في نفس الوقت التقليل من أهمية مسيرته الدينية، والتشكيك في حقيقتها، مع ممانعة واضحة في الاعتراف بالمصدر الإلهي للدين الإسلامي، للإيحاء بأن محمداً(ص) هو كاتب القرآن. وهكذا يتم تعريف الإسلام بـ «المحمدية» والمسلمين بـ «المحمديين».

ويركز ما يعرض في الكتب المدرسية بشكل أساسي على المعاني التي تصدم الثقافة الغربية والتي غالبا ما تكون ذات طابع حكائي ونوادري، في حين لا يتم التعرض إلا باقتضاب للمعاني المشتركة بين الثقافتين. فالحيز الذي يخصص لتحريم الخمر وتعدد الزوجات والحرب المقدسة يفوق بكثير ما يخصص لمبادئ العدل الاجتماعي والإنسانية والمساواة التي تعتبر قيماً أساسية في الدين الإسلامي. فلا يوضح بشكل كافٍ أن الإسلام هو دين التوحيد الثالث الذي ظهر في الجزيرة العربية امتداداً للمسيحية واليهودية، وأنه يعترف بالقيم الدينية السابقة، وأن الأنبياء مثل موسى وعيسى وإبراهيم يحظون باحترام كبير لدى المسلمين.

ولا توجد أدنى إشارة لمبدأ «لا إكراه في الدين»؛ وينعت الشيعة بالعنف والراديكالية

لارتباطهم بالثورة الإيرانية. أما الجزيرة العربية التي كانت مهبط الوحي، فغالباً ما تعرض ضمن إطار تاريخي واجتماعي يصور المجتمع القبلي العربي، بدائياً وعنيفاً وعدوانياً.

إسلام القرون الوسطى:

أول ما يلاحظ بخصوص معالجة الإسلام في الكتب المدرسية خلال هذه المرحلة، غياب أية منهجية تعطي المتلقي صورة شاملة ومنسجمة عن الإسلام. فلا تدرس الحضارة الإسلامية إلا من خلال علاقتها بالإمبراطورية البيزنطية، مع تركيز خاص على جوانب الاحتراب والعداوة بين الطرفين، ولا يشار إطلاقاً إلى ما كان بينهما من علاقات ثقافية ودبلوماسية وتجارية.

ففي معظم النصوص، لا يتم التعريف بالأصول الاجتماعية والسياسية للإسلام، ولا بالعوامل التي ساهمت في انتشاره السريع، في حين يتم التركيز، وبلهجة أحيانا اتهامية، على فكرة تحطيم «الوحدة المتوسطية» بسبب تقدم الإسلام.

ومما لا شك فيه أن الإمبراطورية الإسلامية أقامت نظاما جديدا ودائما حول البحر الأبيض المتوسط، ما غير البنية التي كانت قائمة آنذاك؛ غير أن هذا لا يعني أن التوسع العربي هو الذي أدى إلى تراجع التجارة الأوروبية. ولقد اختلف المؤرخون حول هذا الأمر، لدرجة أن بعضهم يرى أن السوق التجارية الموحدة التي أنشأتها الإمبراطورية الإسلامية بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية، هي التي ساعدت التجارة الأوروبية على استعادة نشاطها. لكن الكتب المدرسية تعتمد الرؤية الخلافية التي تقول بأن نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية لم تغير الوضع التجاري السائد، وأن «الغزو» الإسلامي هو الذي فكك الوحدة التي كانت قائمة حيث قسم البحر الأبيض المتوسط إلى قسمين منغلقين لا تربطهما أية صلة تجارية، ما أدى إلى تراجع التمدين والبنية الإقطاعية في أوروبا.

وتختزل التفسيرات الأكثر تواترا في الكتب المدرسية، أسباب التوسع الإسلامي انطلاقا من الجزيرة العربية، في الفقر الذي دفع العرب إلى احتلال مناطق أخرى لتأمين معيشتهم، وفي الحافز الديني الذي يعد بالجنة كل من يموت في الحرب المقدسة. واستعمال عبارة «**الحرب المقدسة**» بدلا عن الجهاد يعطي معنى مشوها.

وتنزع الكتب المدرسية إلى تلقين المتعلمين أن العرب والمسلمين كانوا فقراء ثقافيا، وأنهم استحوذوا على معارف الشعوب التي أخضعوها لسيطرتهم. وليس هناك أي

اعتراف بما كان للمسلمين من عطاء خاص في ميدان التطور والعلوم، ولا أي ذكر لما أخذه رجال النهضة الأوروبية، من الإنتاج العلمي والفلسفي للثقافة الإسلامية التي ساهمت بشكل حاسم في التمكين لتلك النهضة وفي التقدم الأوروبي اللاحق. وهذا ما قد يرسخ في إدراك التلميذ أن الثقافة الإسلامية غريبة عن الثقافة الغربية، بل منافسة، إن لم تكن مناوئة لها.

الأندلس:

لا تعتبر مضامين النصوص إلا نادراً، أن القرون الثمانية من الحضارة الإسلامية في الأندلس، تشكل مرحلة إضافية من تاريخ إسبانيا؛ وهذا النص بليغ الدلالة على تنكر المناهج الدراسية للإرث الإسلامي: «**لقد غير الاجتياح العربي تاريخ إسبانيا على كل صعيد، وأرغم مسيحيي الأندلس على التعايش القسري مع المسيطرين.**»

وهكذا تتميز معالجة الحضور الإسلامي في إسبانيا طيلة ثمانية قرون، بخاصيات أساسية ثلاث:

١- الميل إلى تدريس مرحلة طويلة وهامة من تاريخ إسبانيا وكأنها أقصوصة صراع بين الخيرين والشريرين، مع قلب واضح لكثير من الحقائق(٧)، مع تركيز الحديث على ما كان بين المسيحيين والمسلمين من علاقات احترابية، ودون أدنى تطرق إلى ما كان بينهما من تعايش سلمي وتبادلات مختلفة.

٢- النزوع إلى عرض تاريخ الأندلس من الزاوية المسيحية.

٣- مقاربة الحقبة العربية الإسلامية في الأندلس من زاوية «الاسترجاع» (la recon-quista) حيث يخصص لدراسته مساحة واسعة جداً، مقارنة مع المساحة الضيقة المخصصة للأندلس؛ وذلك رغم أهمية إسبانيا المسلمة مقابل تاريخ الممالك المسيحية القروسطية.

ورغم تركيزها الكبير على التاريخ الإقليمي، تتجنب الكتب الخاصة بالأندلس الإشارة الواضحة للإرث الإسلامي في مجال الفنون والثقافة؛ وكذلك الأمر بالنسبة للشرق الإسباني، حيث الإرث الإسلامي واضح في منطقة «بالينسيا» مثلا. أما عصر المرابطين، فلا يحظى إلا بتلك الجملة الاختزالية وغير الصحيحة: «**لقد شلّ وصول المرابطين التطور الثقافي**»

ولا بد من الإشارة في النهاية إلى أن كلمة «مورو»، التي تستعمل للاحتقار والشتم في الحياة اليومية الإسبانية، تكرر بشكل مبالغ فيه وبدون تمييز، في نصوص التاريخ الوسيط، دون أدنى إشارة لأية شروح حول أصلها وتطور معناها.

والخلاصة أن الطريقة التي يتم بها تدريس «إسبانيا المسلمة» تنسف كل الجهود الرامية إلى تلقين تلامذة التعليم الأولي معنى التضامن والمساواة وقبول الآخر المسلم، وذلك بسبب النظرة العنصرية والتمييزية الحاضرة بقوة عند دراسة الأندلس.

الإسلام العصري والمعاصر:

عند تناول هذا الموضوع، يتم التركيز أساسا على مرحلتي الاستعمار والاستقلال، مع إغفال تام لما حصل في ما بعد. ويحظى البترول والدول التي تنتجه بمساحةٍ تفوق ما يخصص لغيرها من القضايا والدول. وهذا النص صارخ بالأحكام المسبقة والصور النمطية التي تعرض في الكتب المدرسية:

«هذه الحضارة الإسلامية المستعصية على التغريب والمتشددة في دينها، والقائمة على بنية اجتماعية قروسطية، والفقيرة فلاحيا، والكثيرة السكان، والمتميزة بالثورات القومية العنيفة، قد وجدت في قيام إسرائيل مجالا لتفريغ تعصبها، وفي البترول ملاطا لتوحيد صفوفها.»

العالم العربي والعالم الإسلامي:

تعج الكتب المدرسية عند الحديث عن هذه المنطقة، بالخلط بين تعريفي العالم العربي والعالم الإسلامي، سواء تعلق الأمر بحدودهما الجغرافية أو بمكوناتهما، فنجد مثلا نصوصا من قبيل: **«إن الدول الإسلامية تسمى أيضا دولا عربية»** أو **«إن العالم الإسلامي يتميز بكونه يتشكل من مجموعة دول تجمعها لغة واحدة، ألا وهي اللغة العربية، وديانة واحدة ألا وهي «الأيديولوجية الإسلامية» islamismo، ومشاكل متشابهة»**.

وغالبا ما تستعمل عبارة **«الأيديولوجية الإسلامية»** بدلا عن الإسلام، كما يتضح من هذين النصين: **«تنتشر الأيديولوجية الإسلامية في معظم دول شمال إفريقيا والشرق الإسلامي وإندونيسيا وجزء من آسيا الوسطى» «تعتمد الأيديولوجية الإسلامية في إفريقيا البيضاء ودول مختلفة من إفريقيا السوداء مثل السودان»**

الإمبراطورية التركية العثمانية:

تعتبر الذاتية والانحياز أبرز سمة تشترك فيها معظم النصوص المتحدثة عن هذه الإمبراطورية؛ حيث تعتمد الرؤية التي تعتبر الإسلام تهديدا لأوروبا، كما تعتمد الأطروحة القائلة بأن الحرب لم تكن إلا من جهة العثمانيين.

الاستعمار والاستقلال:

يعطي هذا النص فكرة عن الطريقة التي يتم بها تناول قضية الاستعمار: «**لقد حمل الأوروبيون إلى القارات الأخرى لغتهم ومعتقداتهم وطريقة معيشتهم. ولقد حصلت اليوم الأراضي التي كانت مستعمرة على استقلالها؛ غير أنها لا زالت محتفظة بعلاقات اقتصادية وثقافية مع عواصم المستعمر الأوروبي القديم، وبسبب تشابه هذه البلاد مع الدول الأوروبية، يمكن تسميتها بدول أوروبا الجديدة.**»

أما الشروح الخاصة بتصفية الاستعمار، فتتسم بالغموض والأحكام القيمية المسبقة، إضافة إلى الذاتية والانحياز.

الجامعة العربية والمنظمات العربية:

تتميز النصوص المتصلة بهذا الموضوع بثلاثة أخطاء كبرى وجوهرية، تؤدي إلى تزييف المعنى التاريخي لهذه المؤسسة. فهناك أولاً الخلط بين «العربي» و«الإسلامي»، ثم ربط الجامعة العربية بالحركة القومية العربية البعثية الناصرية. وفي النهاية حصر سبب قيامها في الحرب ضد إسرائيل، بينما كان تأسيسها سنة ١٩٤٥.

ورغم أن العامل المشترك الذي أدى إلى قيام هذه المؤسسة هو «العروبة»، فإن النصوص المدرسية لا تشير إلا إلى العامل الإسلامي.

الاشتراكية والقومية:

يتم تعريف الاشتراكية العربية بأنها نوع من الاشتراكية الإسلامية، مع تأكيد أن حركة الجامعة الإسلامية كانت هي الأيديولوجية القومية للنظام الناصري التي تمثلت في حركة القومية العربية.

أما تعريف حركة القومية العربية بأنها وحدة ضد إسرائيل، فيعتبر تزييفاً للحقيقة،

وهذا النص يوضح الغموض الذي يعتور كل ما يقال بهذا الخصوص: «**في مصر أسقطت الملكية عن طريق انقلاب عسكري أوصل جمال عبد الناصر إلى السلطة، وأدت قوميته العربية (الوحدة ضد إسرائيل) وسياسته الاشتراكية إلى سحب الثقة منه، ثم إلى مواجهة عسكرية مع بريطانيا (أزمة السويس) وضعت حداً للوجود الإنجليزي في تلك البلاد**».

فلسطين، إسلاميا والعرب:

لا تتحدث الكتب المدرسية إلا عن الحروب التي واجهت العرب وإسرائيل، ولا تتناول إلا بشكل مقتضب أصول هذا الصراع وأسبابه وتطوراته، وما ترتبت عنه من مشاكل اجتماعية وسياسية؛ أما القضية الفلسطينية، فغالبا ما يتم تغييبها ضمن الحديث عن العرب عموماً. وتتحدث بعض النصوص عن عداوة العرب لليهود، وكأنها طبيعة في العرب، دون تحليل للأسباب التاريخية التي أنتجت تلك العداوة. ويضاف إلى هذا، عبارات غير مناسبة مثل كلمة «**الكراهية**» التي تتكرر بشكل مبالغ فيه. ويغيب أي توضيح للتجارب التاريخية التي عاشها الطرفان، والتي أدت إلى المواجهة بينهما، وأنتجت ما يتبادلانه من عداوة. ولا تطرح القضية إلا بالشكل الذي يحمّل الجانب العربي وحده ما حصل من مشاكل، من دون حديث عن السياسة العدوانية والتوسعية لإسرائيل، واعتدائها على الفلسطينيين والعرب.

أما بعض الكتب، فتعتمد الأطروحة الصهيونية للصراع، التي تضفي الشرعية على مطامع اليهود في فلسطين، مؤيدة النظرة التاريخية القائلة بوجودهم هناك منذ ما قبل المسيح. في هذا الصدد، تقول بعض النصوص التي تشرح كلمة «**دياسبورا**»، وهي تعني «**نزوح اليهود عن أوطانهم**»: «**دياسبورا: شتات الشعب اليهودي عبر العالم جراء طردهم من فلسطين منذ كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية إلى يومنا هذا.**»

الأصولية والإسلام السياسي:

تفتقر النصوص التي تعالج هذه القضايا إلى الموضوعية والاتزان، أضف إلى ذلك كثرة الأخطاء والالتباسات والأحكام المسبقة وسوء الفهم، حيث تستعمل عبارة «**الإسلام السياسي**» لتعريف حركات اجتماعية وسياسية ظهرت في العقود الأخيرة، محدثة قطيعة واضحة مع النظام الاجتماعي والسياسي والثقافي القائم. غير أن الأصولية أو نزعة الغلو في المحافظة – وهي مصطلحات ترتبط بالمسيحية ولا يمكن مقارنتها بما يحدث على أرض

الإسلام - فتعبر عن اتجاه جد محافظ ومتشدد داخل كل حركة، بحيث ينطبق على عدد من الحركات المتباينة فيما بينها؛ وإذا وصف الكل بـ«الأصولية»، فلا مبرر للتمييز بين السعودية وإيران، كما ورد في مثل هذا النص: «في سنة ١٩٨٨ أقدمت السعودية، وهي **دولة عصرية تنهج سياسة موالية للغرب، على قطع علاقاتها مع إيران، بسبب المساندة التي قدمها الزعيم الإيراني آية الله الخميني للحركة الراديكالية الإسلامية.»**

وعوضا عن شرح لماذا حصلت الثورة الإسلامية للخميني، وما هي المتغيرات التي أحدثتها مقارنة بنظام الشاه، تقتصر النصوص على إدانتها، وتمجيد النظام المتسلط الذي سبقها، لتتحكم النزعة الغربية في التحليل. كما تتميز النصوص بعدم التمييز بين الاتجاهات المختلفة داخل المنظومة الإسلامية لدرجة أنها تربط كل حركة إسلامية بالإسلام الشيعي.

ويوقع هذا الخلط بين الوقائع والأحداث الذي يُقدَّم للمتعلم دون توضيح لأسبابها ومبرراتها، في أخطاء كبيرة مثل ربط استيلاء القذافي على الحكم سنة ١٩٦٩ بالحركة الإسلامية، أو تحويل صدام حسين إلى زعيم الثورة الإسلامية، أو الربط الخاطئ للهجوم الذي استهدف إسرائيليين سنة ١٩٨٥ في كل من روما وأثينا بالحركة الإسلامية. والخلاصة أن هذه الطريقة الفظة التي تتم بها تعبئة التلاميذ، تكوّن لديهم موقفاً سلبياً من كل ما يصدر عن البلاد الإسلامية وشعوبها.

الحرب العراقية الإيرانية:

أما هذه الحرب فلا ترد في النصوص إلا بشكل مقتضب، لا يوضح أسبابها الأساسية، ويربط بشكل آلي بين الشيعة والأصولية.

حرب الخليج الثانية:

وهذه الحرب نفسها، ورغم أهميتها بالنسبة لكل من العالم الغربي والعالم العربي والإسلامي، فلا تعالج في الكتب المدرسية، إلا بشكل جد محدود، مع اعتماد كلي للمقاربة الغربية لها. وهكذا نجد أن الجيش العراقي كان يمثل **«القوة الرابعة في العالم»**، و**«أن العراق كان سيتحول إلى أقوى عضو في منظمة الدول المنتجة للنفط، ما كان سيمكنه من التحكم في أسعار النفط ومن التحول إلى سيد حقيقي لهذه المنطقة التي تنتج أكثر من ٧٠٪ من النفط العالمي»**.

المغرب العربي:

كان من المفترض، بسبب القرب الجغرافي والروابط التاريخية والعلاقات الحالية بين المغرب العربي من جهة وإسبانيا وأوروبا من جهة ثانية، أن يخصص لدول هذه المنطقة، وخاصة للمغرب والجزائر مساحة أكبر مقارنة بما يخصص لباقي الدول العربية والإسلامية ؛ لكن الحديث عن هذه الدول ينحصر في تصفية الاستعمار مع تركيز خاص على الحالة الجزائرية، أما مميزات هذه الدول في العصر الراهن فمغيبة تماما.

اقتصاد الدول العربية والإسلامية:

بالرغم من أن الدول لا تشكل إلا أقلية داخل المجموعة العربية والإسلامية، فإنها تحظى بحصة الأسد عند الحديث عن العالم الإسلامي، وذلك من دون أدنى إشارة إلى التباين في الثراء بين دوله؛ بل هناك بعض النصوص التي ذهبت إلى حد القول بأن كل الدول الإسلامية منتجة للنفط وتحظى بدخل فردي مرتفع. ونجد عند الحديث عن التنمية الاقتصادية لهذه الدول نصوصا من قبيل: **«في بلاد أخرى لم تكلل الإصلاحات التي بدأت في العقود الأخيرة بالنجاح، ثم إن موجة الأصولية الجديدة التي اجتاحت العالم الإسلامي أخذت تعيد النظر في الإصلاحات التي بدأها الزعماء الذين تكونوا في البلاد المتقدمة».**

المجتمع الإسلامي:

عند تناول موضوع المرأة والأسرة، تتحدث النصوص وكأن التمييز بين الجنسين أمر خاص بالعالم الإسلامي، متناسية أن البنية الأبوية قد تطورت في كل مجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط. بدلا من تقديم أدوات للفهم والتوضيح، تكرر النصوص الصور النمطية والنوادرية من قبيل: **«بعد ١٤ قرنا تقرر في السعودية أنه ليس من العدل أن يتزوج المرء «على عمى»، وعليه قرر العلماء أن تكشف المرأة عن وجهها لخطيبها.»** ومثل: **«في العالم الإسلامي يجب على النساء أن يغطين جسدهن، بما في ذلك الوجه.»**

اللغة والأدب العربيين:

ينحصر النزر اليسير المخصص للغة والأدب العربيين، في المرحلة القروسطية، ضمن مادة الأدب الإسباني. ورغم وجود أديب حاصل على جائزة نوبل في الأدب مثل نجيب

محفوظ، فلا يدرس أي كتاب معاصر ضمن المواد الأدبية التي تقدم لتلاميذ البكالوريا. وغالبا ما تتمنع المضامين الأدبية عن تبني القرون الثمانية في الحضارة الإسبانية الإسلامية بصفتها مرحلة إضافية من تاريخ إسبانيا، كما هو صريح في هذه النصوص: «لقد غيّر الاجتياح العربي تاريخ إسبانيا على كل صعيد، وأرغم مسيحيي الأندلس على التعايش القسري مع المسيطرين» و«في عهد الملوك الكاثوليك، عاد النظام إلى إسبانيا وحدث ازدهار جديد للآداب.»

«الإنسان والمجتمع القروسطي، طبقة النبلاء: كان مثلها الأعلى هو القتال في سبيل الله وباسم إيمانها، لطرد العرب أعداء وطنها ودينها والدفاع عن العزّل وحمايتهم.»

«كان عمل الكنيسة في المجال الثقافي ذا أهمية بالغة، فكانت من جهة تعلّم الفلاحين في الأديرة، الزراعة، ومن جهة ثانية، أضحت الكنيسة بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، مستودع العلوم والثقافة».

ويتحول ثانية «الاسترجاع» إلى المحور الأساسي للصيرورة التاريخية للقرون الوسطى؛ حيث ينصب التركيز على صور الصراع والمواجهة بين الممالك المسيحيين والمسلمين: «لقد حارب المسيحيون العرب خلال حرب «الاسترجاع» التي دامت ثلاثة قرون، وانتهت باحتلال غرناطة من طرف الملوك الكاثوليك سنة ١٤٩٢.»

كما أن مفهوم الثقافات الثلاث يتكرر في كتب الأدب التي تتميز بالسطحية والتبسيط، مثل: «تعايشت في إسبانيا القروسطية ابتداء من عام ٧١١ ثلاث ديانات وثلاث ثقافات»

ونظرية الثقافات الثلاث هذه تفتقر في الحقيقة للواقعية السوسيولوجية؛ فلقد كان في إسبانيا ثلاث ديانات، من مدجنين (مسلمين أندلسيين) ومستعربين (المسيحيين) ويهود، لكن دون أن تمثل كل واحدة منهن ثقافة متفردة بخصوصيتها. كان اليهود يمثلون ديانة ثالثة معربة، لكنها، وإن احتفظت بشخصيتها وطقوسها، لم تنشئ ثقافة في حد ذاتها، بدليل أن يهود الأندلس كانوا يستعملون العربية لغة ثقافية، يحررون بها مؤلفاتهم، ولم تكن بالتالي العبرية لغة ثقافة، كما تؤكد ذلك النصوص.

ولا نجد أثراً للأدب الأندلسي المكتوب عند الحديث عن الأدب القروسطي الإسباني، باستثناء ظهور بعض الصيغ المزدوجة مثل الموشحات والأزجال والخرجات. لقد كان الشعر العربي، الذي بلغ قمة تطوره في عهد الخلافة، خلال القرن العاشر، يجمع ملامح

القصيدة العربية الصحراوية، وملامح الشعر الفارسي البيزنطي والإبداع الأندلسي الخالص؛ فمن المفروض أن يتم التعريف على الأقل بأعلام الثقافة آنذاك، من أمثال زرياب وابن حزم والمعتمد وابن زيدون وغيرهم في مجال الأدب، ثم ابن طفيل وابن رشد وابن ميمون وابن حزم في مجال الفلسفة، علماً بأن أعمالهم مترجمة إلى اللغة الإسبانية.

ولا بد من الإشارة في النهاية إلى المبالغة الواضحة في استعمال وصف «مورو» مقابل وصف «مسيحي» دون إرفاق ذلك بأي توضيح حول استعمال وصف «مورو»، ولا حول ما أضحى يحمله من معنى قدحي.

ونشير بخصوص اللغة الإسبانية واللغة العربية، بأن تأثير الثانية في الأولى يأتي في الدرجة الثانية بعد تأثير اللاتينية من حيث الأهمية؛ وبالتالي لا يوجد أي تفسير لإيلاء اليونانية أهمية أكبر مما تحظى به العربية، ولا لسبب الاستمرار في إقصاء اللغة العربية وتجنبها كما تشهد بذلك كثير من النصوص. فلا يكفي ترديد أن اللغة الإسبانية تحتوي على ٤٠٠٠ كلمة عربية، وذكر بعض منها؛ فالمطلوب أن نبين عملياً للمتعلمين كيف تعيش العربية في الإسبانية على المستوى الدلالي والصوتي وصياغة الجمل، كما هي حاضرة في ميادين العلوم والجغرافية والفلاحة والحياة اليومية وطريقة تسمية الأنساب والطبخ، وغيرها.

ومن الضروري كذلك أن نوضح لهم كيف وفي أية مرحلة تاريخية ومن خلال أية ظروف اجتماعية وأدبية، حصل ذلك التلاقح بين اللغتين العربية والإسبانية القديمة إلى أن أنتج اللغة القشتالية. كما يجب أن تشمل هذه الدراسة توضيح العلاقة بين اللغة العربية واللغة القطلانية، حيث غالبا ما يتجاهل الإرث العربي الذي تحتويه القطلانية.

ولا بد كذلك من توضيح الفرق بين اللغة العربية الدارجة واللغة العربية الفصحى؛ فلقد تطورت في إسبانيا – كما هو الشأن في باقي دول العالم العربي – لغة عربية دارجة، تأثرت بمختلف اللهجات المغاربية، التي تختلف عن لهجات المشرق العربي.

كانت اللغة العربية الفصحى لغة الفكر والثقافة المهيمنة في الأندلس، اعتمدها كل من المستعربين الأندلسيين والعلماء الموسوعيين والدارسين اليهود، كما تشهد بذلك الطريقة التي كانت تعمل بها مدرسة المترجمين في طليطلة. فلقد كان النص العربي الأصلي يترجم من طرف عالم عربي يهودي إلى اللغة الإسبانية (التي كانت متداولة في ذلك الوقت) ثم يتولى باحث مسيحي الترجمة من الإسبانية إلى اللاتينية.

وتجدر الإشارة كذلك إلى قلة الاهتمام بتدريس ما كان يسمى بـ«العجمية» وآدابها؛ و«العجمية» هي الاسم الذي كان يطلقه الأندلسيون على لغة المسيحيين. وتشكل هذه اللغة مجموعة من النصوص الموريسكية ضمن اللغة الإسبانية القديمة، غير أنها كانت مكتوبة بالخط العربي بدلا عن الخط اللاتيني. ويعتبر أهم عمل أدبي من هذا النوع، ذلك الذي ينتمي للقرن الرابع عشر تحت عنوان **«شعر يوسف»**.

كان المسيحيون والمستعربون حريصين في البداية على التمكن من اللغة العربية ليتسنى لهم الاطلاع على الأعمال الأدبية والفلسفية العربية إبان الازدهار الإسلامي بالأندلس؛ لكن هيمنة الثقافة المسيحية بعد ذلك بضع قرون، أحدثت ظاهرة مماثلة لكن في الاتجاه المعاكس؛ حيث شرع المسلمون الأندلسيون والموريسكيون يتخلون عن اللغة العربية لصلحة الإسبانية؛ وهكذا انسحبت اللغة العربية من إسبانيا؛ وبالتالي لم يعد ممكنا المحافظة على القيم الإسلامية باستعمال العجمية.

ولا شك في أن الاعتراف بهذا الإرث العربي والرغبة في تقريب اللغة العربية من الطلبة يستوجب إدراج اللغة العربية المعاصرة ضمن قائمة اللغات المقترحة على الطلبة، ولا شئ يبرر غيابها من لائحة اللغات المقترحة عليهم اليوم.

خاتمة:

يشير التقرير الأمريكي المتعلّق بالحريات الدينية – الصادر عام٢٠٠٣م، إلى أن الإسلام يحتل المرتبة الثانية من حيث عدد معتنقيه في أكثر من ١٦ دولة من مجموع ٣٧ دولة أوروبية؛ ويقدر عدد المسلمين في أوروبا بأكثر من ٢٣ مليون نسمة؛ أي أنهم يشكلون حوالي ٥٪ من عدد السكان؛ ويرى التقرير أن انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي سيقفز بهذا العدد إلى أكثر من ٩٠ مليونًا، ما يمثل ١٥٪ من عدد سكانه(٨).

ولقد بدأ كثير من أبناء المسلمين ينخرطون في العمل السياسي في الغرب، كما نشأت مؤسسات تمثيلية للمسلمين في كبريات العواصم الأوروبية، يعتبر أهمها المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا والمجلس الفرنسي للدين الإسلامي والمجلس الاستشاري للمسلمين في إيطاليا، والجهاز التمثيلي (جمعية عمومية ومكتب تنفيذي) لمسلمي بلجيكا، وغيرها.

وفي سنة ١٩٨٩ أفتت اللجنة الاستشارية للحرية الدينية التابعة لوزارة العدل بأن

الإسلام «**دين متأصل الجذور**» في إسبانيا. وفي ٢٨ إبريل سنة ١٩٩٢، وقعّت الحكومة الإسبانية مع «**اللجنة الإسلامية بإسبانيا**»، «**اتفاق التعاون مع الدولة**»، والذي بمقتضاه تم الاعتراف بالإسلام كدين رسمي من أديان الدولة، وتحديد الوضعية القانونية للمسلمين وحقوقهم في الدولة الإسبانية، ومع بداية عام ٢٠٠٥، بدأت الحكومة الأسبانية تدريس الدين الإسلامي في عدد من المدارس في المدن الإسبانية الكبرى. وفي سنة ٢٠٠٤ دعا رئيس الوزراء الإسباني «**خوسيه لويس ثاباتيرو**» إلى تحالف الحضارات.

لكن ورغم كل هذه التطورات الإيجابية، لا يمكن أن يكون هناك اندماج إيجابي للمسلمين في الغرب، ولا تفاعل حضاري، ما دامت المناهج الدراسية تعج بتلك النصوص المتجنية، وما دامت وسائل الإعلام لا تكف عن التشنيع بالمسلمين والتخويف منهم، ومعاملتهم بعنصرية وازدراء.

لكن، هل يستطيع المتحكمون في الغرب، الطامعون في ثروات البلاد الإسلامية، والمتوجسون من أي نهوض للمسلمين، أن ينحازوا إلى موقف من المسلمين أكثر إنصافا واعتدالا ؟ وهل تقبل الصهيونية بذلك ؟

كل ما نرجوه، هو أن يعمل الأوروبيون بنصيحة الخبير الأمريكي تيموثي سافيج(٩) حيث يقول: «**لعل أوروبا تتجاوز كل هذا الأفق السلبي، وتجعل من الحضور الإسلامي لديها فرصةً لتأسيس نهضة جديدة، وإذا كانت نهضة أوروبا الماضية قد تأسست على التصارع والتشابك مع الإسلام، فلا مناص لها اليوم من أن تؤسس نهضتها الجديدة على التحاور ومعانقة الإسلام، وكما بدأت الألفية الماضية بالحرب الصليبية، فإن الألفية الجديدة تؤشر إلى بدايات مختلفة، خاصةً مع انغراس الإسلام في قلب العواصم الأوروبية**»(١٠)

الهوامش:

(١) إدوارد سعيد، الإستشراق، ترجمة كمال أبوديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية.

(٢) صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، الدكتورة مارلين نصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥

(٣) العرب والغرب مقاربة ثقافية، ص٢٤.

(٤) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص٢٨٧.

(٥) العرب والغرب مقاربة ثقافية، ص٢٤.

(٦) El Islam y el mundo àrabe; Guia diadàctico para profesores y formadores

(٧) إن النظرة القائلة بـ«الأسبنة» الاجتماعية للعرب والبربر الذين قدموا إلى إسبانيا، بشكل لم يبق لهم إلا غشاء خفيف من الثقافة الشرقية، غير مسلّمة من عدة أوجه:

أ- عوض أن يتم دمج العرب والبرابرة واستيعابهم في النظام الاجتماعي الأصلي، فإن أهل الأندلس هم الذين اندمجوا في البنية الاجتماعية للفاتحين.

ب- لم يحدث أي اندماج للثقافتين لإنتاج ثقافة مغايرة وجديدة، بل كان الذي حصل هو تبني المسلمين الجدد القيم العربية والشرقية.

أما ما فسّر بأنه انصهار ثقافي، فلم يكن إلا ذوبان الأقلية العربية في جموع أهل الأندلس ليشكلوا بذلك مجتمعاً إسلامياً، حلّ محلّ نموذج الدولة الأصلي، وتولت الحكم فيه تلك الأقلية العربية.

(٨) يحمل التقرير عنوان «أوروبا والإسلام: الهلال المتنامي، وصدام الثقافات». ونشر في المجلة الفصلية (The Washington Quarterly)في عددها لصيف ٢٠٠٤.

(٩) تيموثي سافيج، العامل في قسم الدراسات التحليلية المتعلقة بأوروبا، والذي عمل قنصلا عاما للولايات المتحدة الأمريكية بألمانيا.

(١٠) تقرير «تيموثي سافيج»،بعنوان «أوروبا والإسلام: الهلال المتنامي، وصدام الثقافات»، م. س.